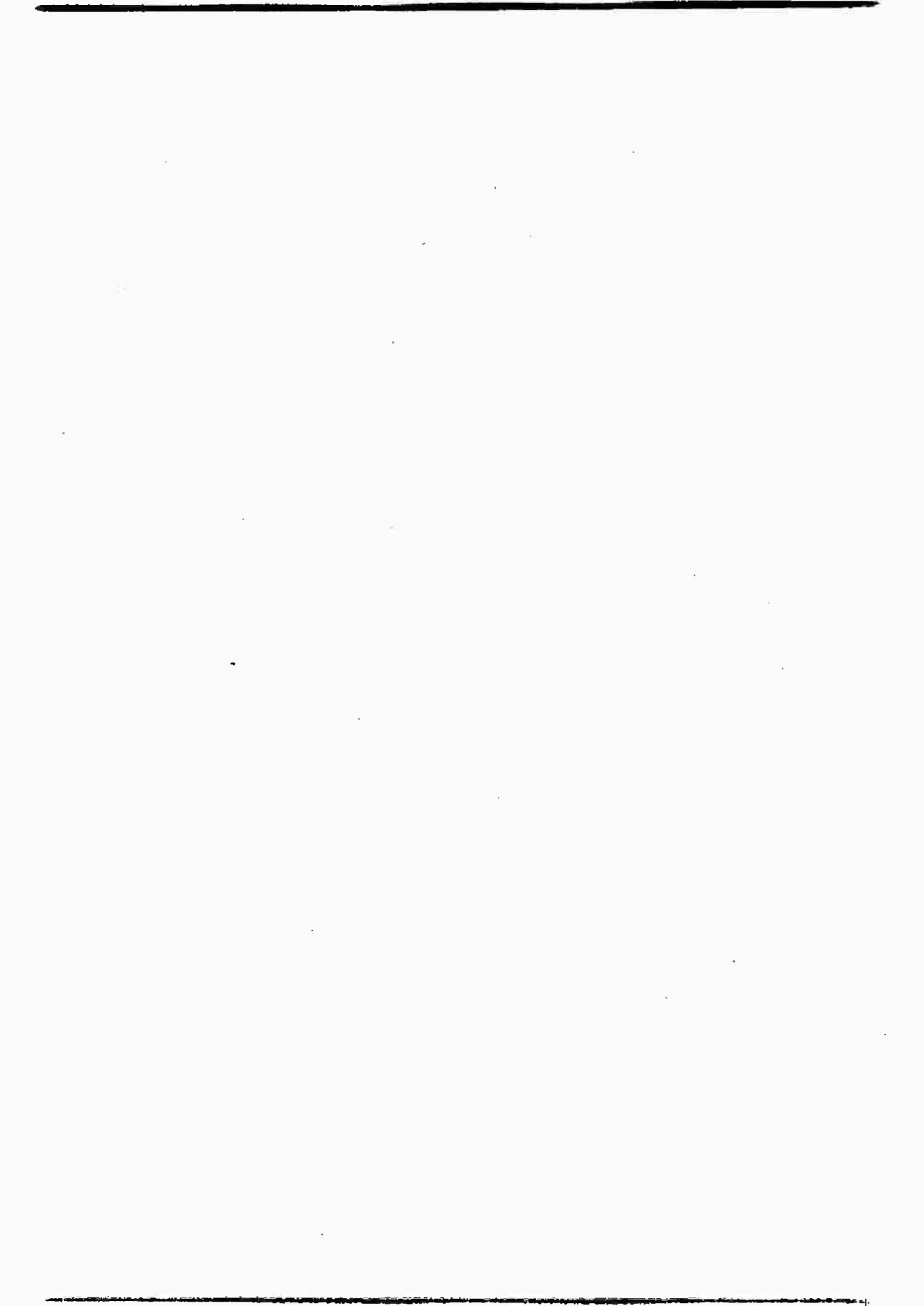


## سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ • فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ •  
وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ • فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ  
عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ • الَّذِينَ هُمْ بُرَاءُونَ • وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

علق الله العظيم



السورة مكية مبكرة ، نزلت بعد التكاثر .  
وترتيبها في النزول السابعة عشرة ، على المشهور .  
وجاءت باسم سورة «أرأيت» في جامع البيان للطبري والكشاف للزمخشري والتفسير  
الكبير للفخر الرازي .

• • •

وقراءة الجمهور : أرأيتَ .  
وقرأ بعضهم «أرأيتَ» بحذف الهمزة من رأى . قال في الكشاف : «وليس  
بالاختيار ، لأن حذفها مختص بالمضارع ، ولم يصح عن العرب رَأَيْتَ ، ولكن الذي  
سهل من أمرها وقوعُ حرف الاستفهام في أول الكلام ، ونحوه :  
صاح هل رَأَيْتَ أو سمعتَ بِرَاعٍ رَدًّا في الضُّرْعِ ما قرى في العِلابِ<sup>(١)</sup>  
وقالوا في أسباب النزول ، إنها نزلت في : أبي سفيان ، أو العاص بن وائل  
السهمي ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أبي جهل ، وقال ابن عباس : «نزلت في منافق  
جمع بين البخل والمراعاة» .  
والعبرة على كل حال بعموم اللفظ .

• • •

وتسهل السورة بهذا الاستفهام المثير : «أرأيت الذي يكذب بالدين» ؟  
والأصل في الاستفهام أن يكون من سائل يطلب الفهم ويستفسر عما يجمل ، أما  
حين يكون المستفهم على علم بما يستفهم عنه ، فإن الاستفهام يخرج بذلك عن أصل  
معناه في الوضع اللغوي ، إلى المجاز البلاغي .  
وفيا أحصى البلاغيون من أغراض يخرج بها الاستفهام عن معناه الأصلي ، لا أجد  
ما يجلو السر البياني لمثل هذا الاستفهام القرآني : «أرأيت» ؟  
وعند «الراغب» أن «أرأيت ، يجرى مجرى : أخبرني» وأن كل ما في القرآن من .

(١) مثله ، بنصه ، في التفسير الكبير للرازي .

هذا الأسلوب «فيه معنى التنبيه»<sup>(١)</sup> ، قال الفخر الرازي فيه : «إن الغرض منه المبالغة في التعجب» وذهب الشيخ محمد عبده إلى «أن المقصود به التنبيه إلى خفي مجهول» .  
 وأميل إلى القول بأن سره البياني في الاستفهام عما يبدو للناس واضحاً غير خفي ،  
 ومحسونه معلوماً غير مجهول ، إذ ليس التكذيب بالدين مظنةً خفاء ، والناس يحسونه أنه  
 يكفى المرء تصديقاً بالدين أن ينطق بالشهادتين ويؤدي العبادات المفروضة من إقامة  
 الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .  
 ومن ثم يأتي الاستفهام عما يحسبه الناس مستغنياً عن كل بيان ، فيثير أقصى اليقظة  
 والانتباه ، ويرهف الدهشة والترقب انتظاراً لجواب غير متوقع ، وتطلعاً إلى معرفة ماذا  
 يكون التكذيب بالدين غير الذي يعلمون منه بالضرورة ؟

• • •

والدين في العربية : الطاعة والخضوع . وسُمى العبد مديناً لأن العبودية أخضعته .  
 والديان : القهار ، والقاضي ، والحاكم .  
 وشاع استعماله في الجملة بعامة ، وفي الإسلام بوجه خاص ، وهو المعنى الغالب في  
 الاستعمال القرآني .

«إن الدينَ عند الله الإسلامُ» .

«ألا لله الدينُ الخالصُ» .

«اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً» .

«ومن يتبع غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبلَ منه» .

وسُمى اليوم الآخر «يومَ الدين» أربع عشرة مرة .

وفي آية «أرأيت الذي يكذب بالدين» فُسر الدين بأنه ثوابُ الله وعقابه (الطبري)

واختار الزمخشري كذلك أن يكون بمعنى الجزء . والأولى عند الرازي أن يكون بمعنى

الإسلام .

وهي أقوال متقاربة ، وإن يكن حمله على الدين بمعنى العقيدة والإسلام ، أقوى

(١) مفردات القرآن : مادة (رأى) .

عندنا ، والله أعلم ، من حمله على الحساب والجزاء ، لأن التكذيبَ بها لا يكون إلا عن تكذيب بالدين .

\* \* \*

والكذب : نقيض الصدق . استعملته العربية في الناقاة الكذوب يُظنُّ أنها حامل ثم تخلف الظن ، وفي البرق يوهمُّ أن وراءه مطراً ثم لا يكون مطر . كما استعملته في خداع الحس ، فقيل كذبت العينُ أو الأذنُ إذا أخطأت حقيقةً ما تبصر أو ما تسمع . ومنه جاء الحلم الكاذب والرجاء الكاذب ، وكل ما أخلف الظن والتقدير . وقيل كذبتَه نفسه إذا مَتَّه الأمانى وخيَّلت إليه من الآمال ما لا يكاد يكون . وكَتَبَ بالأمر . أنكره ولم يصدقه .

وبهذا الحس الأصل من سوء التقدير وإنكار الحق ، يأتي التكذيب في القرآن الكريم أكثر ما يأتي في التكذيب بالله وآياته ورسله . وهو التكذيب بالحق والصدق . ومنه التكذيب بالنذر ، وبالساعة ، وبلقاء الله والآخرة . ويوم الفصل ، ويجهنم والعذاب .

وكثر في القرآن الوعيد والإنذار بعاقبة المكذبين ، ووصفوا بأنهم الضالون ، والمجرمون ، والكافرون ، والغافلون . كما أسند إليهم : الافتراء ، والظلم ، والإثم ، والاعتداء ، والمعصية ، والخسران ، واتباع الأهواء .

وجاء التكذيب بالدين في آيات :

«كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالدينِ» (الانفطار ٩)

«فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدينِ» أليس الله بأحكم الحاكمين» (التين ٧)

«أرَأَيْتَ الَّذِي يُكذِّبُ بِالدينِ» (الماعون ١)

وتولى الآياتُ بعدها بيانَ المستفهم عنه من هذا التكذيب بالدين :

«فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ اليَتِيمَ» .

والدعُّ الدفع العنيف مع قسوة وجفاء . ولم يستعمله القرآن الكريم إلا في آيتين ،

إحدهما للمعاملة في الدنيا وقد خُصَّ به اليتيم في آية الماعون .

والأخرى في دَعَّ المكذبين إلى النار يوم الدين بآية الطور :

« فويلٌ يومئذ للمكذبين • الذين هم في خوضٍ يلعبون • يومٌ يُدْعَوْنَ إلى نارِ جهنَّمَ دَعَاً • هذه النارُ التي كنتم بها تُكذِّبون » ١٣

وهذا يكنى لمح الحسَّ القرآني للدعِّ ، بما فيه من قسوةٍ وغلظةٍ وجفاء .  
واليتيم الصبي فقد أباه ، وقد سبق استقراء آياته في الضحى « ألم يجدك يتيماً  
فأوى »<sup>(١)</sup> ولحظنا اقتران اليتيم في هذه الآيات ، بالمسكين والأسير (الإنسان ،  
والبلد) ، والضال والعائل (الضحى) وجاء اليتامى مع المساكين وابن السبيل في  
خمس آيات ، ومع الرقاب للأرقاء في آيتي (البقرة ١٧٧ ، النساء ٣٦)

فشهد ذلك بحساسة بالغة الرقة لمكان اليتيم في مجتمع غير متراحم ولا متكافل ، مما  
اقتضى أن يقرر كتاب الإسلام حقَّ اليتيم في المجتمع الإسلامي الصالح ، وأن يجعله تالياً  
لحق الله والرسول وذوى القربى في آيات (الأطفال ٤١ ، الحشر ٧) ومعها (البقرة ١٧٧ ، ٢١٥)  
وتالياً لعبادة الله والإحسان بالوالدين وبذى القربى في آيتي (البقرة ٨٣ ، النساء ٣٦) .

وفي (سورة الفجر) الوعيد الرهيب لمن لا يكرمون اليتيم .  
وهنا في آية (الماعون) يبلغ بالقرآن أن يعدَّ دَعَّ اليتيم تكذيباً بالدين :  
« فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ •  
وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » .

والعربية تستعمل الحَضُّ في الحثِّ وبعث الحَمِيَّة ، نقلاً من الحثِّ الشديد على  
السير . وقد نقلنا في آية الفجر : « وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ » قولَ الراغب  
الأصفهاني في (المفردات) إن الحث يكون بسير ، بخلاف الحَضُّ .

والذي نظمنا إليه من حس العربية ، هو مألوف استعمالها للحَضُّ في الحمل على  
ما يُكره ، ولعل أصل الاستعمال اللغوي من الحَضُّ وهو داء يُشْفَى بعصارة الصَّبْر ،  
أو هو عَصارة من أخلاط كريمة كانوا يتداوون بها . وحَضُّوس : اسمُ جبل في البحر  
كانت العرب تنفي إليه خُلعاءها .

والقرآن الكريم لم يستعمل الحَضُّ في آياته الثلاث ، إلا في سياق الإنكار لعدم  
التواصي برعاية المسكين وإطعامه مع اقتران هذا الإنكار بالكفر بالله والتكذيب بالدين :

(١) في الجزء الأول من التفسير البياني .

آية الحاقة ٣٤ : «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم • ولا يحض على طعام المسكين • فليس له اليوم ههنا حميم • ولا طعام إلا من غسلين • لا يأكله إلا الخاطئون» .  
الغسلين ، طعام من لا يحض على طعام المسكين ، فُسِّر بأنه ما يسيل من جلود أهل النار .

وآية الفجر ١٨ : «كلا بل لا تكرمون اليتيم • ولا تحاضون على طعام المسكين • وتأكلون التراث أكلاً لما» .

وفي آية الماعون ، تجيء آية : «ولا يحض على طعام المسكين» في بيان الذي يكذب بالدين .

• أوجز «الطبرى» فسرهما بأنه الذى لا بحث غيره على إطعام المحتاج إلى الطعام <sup>(١)</sup> .  
وقال الزمخشري : «ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين . جعل علم التكذيب بالجزء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف . يعنى أنه لو آمن بالجزء وأيقن بالوعيد لخشى الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك» <sup>(٢)</sup> .

وأضاف إليه الرازى احتمال أن يكون المعنى : ولا يحض نفسه على طعام المسكين . ونرى أن تفسير الحض بالحث ، لا يعطى ملحظ الحَمَل على ما يُكره عادةً ، كما يفوته ملحُ خصوصية الاستعمال القرآنى للحض في الإنكار لعدم التحاض على طعام المسكين .

وتقييد الآية بعدم حض الأهل ، لا يعين عليه النص لفظاً وسياقاً ، وإنما هو إنكار لموقف من ينكصون عن احتمال التبعة فلا يؤدون حق الجماعة في الدعوة إلى الخير والتواصى بالمرحمة ، وفي حسابهم أنه يكفى الإنسان تصديقاً بالدين ، أن يؤدى فروض عبادته ، وأن خطيئات غيره لا يقع عليه منها إثمُ السكوت على منكر .  
وتأويل الحض بأنه لا يحض نفسه ، غير قريب . فضلاً عن كونه يخرج بالآية عن سياقها القرآنى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وللفخر الرازى ملحظ دقيق في إضافة طعام إلى المسكين ، يُجدى على ما نفرغ له

(١) جامع البيان : ٤٩١/٣٠ .

(٢) الكشاف : ٢٣٦/٤ .

من دراسة بيانية . قال : « وإضافة طعام إلى المسكين تدل على أن ذلك حق المسكين . فكأنه - المكذب بالدين - منع المسكين مما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقسوة قلبه وخساسة طبعه» (١) .

• • •

«قَوْلُ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» .

سبق الحديث عن لفظ «ويل» واستقراء الاستعمال القرآني له ، في تفسير آية

الهمزة : «ويل لكل همزة لمزة • الذي جمع مالا وعدده» .

والسهو لغة : النسيان والغفلة . ولم يستعمله القرآن الكريم إلا في آيتين :

«قِيلَ الْخُرَاصُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ • يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ

الدين • يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ • ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ»

(الذاريات ١١)

وآية الماعون ، والسهو فيها عن الصلاة ، وليس في الصلاة .

ومن ثم نستبعد ابتداء قول من تأولوا السهو في الآية بأنه سهو في الصلاة وليس

السهو فيها بخطيئة ولا منكر ، وكل مؤمن عرضة لأن يسهو في صلاته ، وينجبر مثل هذا

السهو في الصلاة بسجود السهو والتواقل على ما هو مقرر في باب سجود السهو من

أحكام الفقه .

فما يكون السهو عن الصلاة ؟

اختلف أهل التأويل فيه ، وقد أورد الإمام الطبري من أقوالهم في المقصود بهذا

السهو :

أنه تأخير الصلاة ، لا يُصَلُّونَهَا إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِهَا عَنْ وَقْتِهَا .

أنه الترك للصلاة لا على نية القضاء . وعن ابن عباس : هم المتأفقون كانوا يرامون

بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا .

أو هو التهاون بها والتغافل عنها ، لا يبالي أحدهم صلى أم لم يصل .

وأولى الأقوال عند الطبري بالصواب : «أنهم ساهون لاهون يتغافلون عنها . وفي

اللهو عنها والتشاغل بغيرها تضييعها أحياناً وتضييع وقتها أحياناً أخرى . فصحَّ بذلك قول من قال : عَنِّي بِذَلِكَ تَرْكٌ وَقِيهَا ، وقول من قال : عَنِّي تَرْكُهَا<sup>(١)</sup> .  
وأضاف « الزمخشري » إلى هذين الوجهين وجهاً ثالثاً : «أولا يصلونها كما صلاحها رسول الله ﷺ والسلفُ ، ولكن ينقرونها نقرأ من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يُكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور»<sup>(٢)</sup> .

ووقف « الرازي » عند تأويل السهو عن الصلاة بتركها ، فأثار فيه مسألتين : « أن يقال إن الله تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله : \* فويل للمصلين \* وأيضاً فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك ، لا يكون نفاقاً ولا كفراً ، فيعود الإشكال . . .  
ثم قال : « ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مصلين نظراً إلى الصورة ، وبأنهم نسوا الصلاة نظراً إلى المعنى كما قال : \* وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون النامس ولا يذكرون الله إلا قليلا \* . ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله » .

\* \* \*

ولا نفهم الآية بمعزل عن الآية التالية لها وقد ارتبطت بها ارتباطاً الصلة بالموصول :

« الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ \* وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ » .

والمراعاة في العربية أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن . ووجه المفاعلة فيها أنه يرى الناس من ظاهر أمره ما يرونه موضع ثناء . وهي قريبة من النفاق ، وإن شاع في المجال الديني تخصيصُ النفاق بمن يكتم الكفر ويظهر الإسلام . وإطلاقُ الرياء عاماً في التظاهر بالإيمان وبالصلاح والبر ، وإضمار نقيضها .

وهو ما يؤنس إليه استعمال القرآن الكريم للرياء والمرءاة في الآيات الخمس :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً

(١) تفسر الطبري : الجزء الثلاثون .

(٢) الكشف : ٢٣٦/٤ .

الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر» (البقرة ٢٦٤)

ومعها آيتا : (النساء ٣٨ ، ١٤٢)

«ولا تكونوا كالذين خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .» (الأنفال ٤٧)

وآية الماعون في «الذين هم عن صلاتهم ساهون» والذين هم يراءون

ويعنعون الماعون» .

ومن معاني الماعون في معاجم اللغة : الماء والمطر ، وكل ما يستعار للمنفعة عند الحاجة من فأس وقدر وإناء ، ومنه شاع استعماله في الإناء . وقد يُطلق الماعون أيضاً على الزكاة ، بملحظ من إعطاء حق المال المفروض ، على قلته ، لمن يحتاج إليه ولا يجوز إمساكه عنه .

ولم يأت الماعون في القرآن الكريم إلا في هذه الآية .

في قولٍ إنه الزكاة ، اختاره الزمخشري .

على أن أكثر المفسرين فيما نقل الفخر الرازي ، تأولوه بأنه ما يتعاوره الناس في العادة ، كالفأس والدلو والمقدحة ، والملح والماء والنار .

وعند الرازي أنها سُميت ماعوناً لقلّة شأنها ، كما سُميت الزكاة ماعوناً لأنه يؤخذ من المال رُبْعُ العُشْر وهو قليلٌ من كثير .

ونبه الزمخشري إلى أن منع هذه الأشياء التي يتعاورها الناس «قد يكون محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار ، وقبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة» .

على حين يرى الرازي «أن البخل بهذه الأشياء القليلة يكون في غاية الدناءة . ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم إياه ، لا يقتصر من

ذلك على الواجب» .

ونقول مع الإمام الطبري :

«إنهم يمنعون الناس ما يتعاورونه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب

الله لهم في أموالهم من حقوق ، لأن كل ذلك من المنافع التي يتفجع بها الناس بعضهم

من بعض» .

وقد احترز عدد من المفسرين في تأويل : «يراعون ويمنعون الماعون» من أن تتجه المراءة إلى إظهار العمل الصالح إذا كان فريضة «لأن الفرائض شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن ، فيجب نفي التهمة بالإظهار وإنما المكروه المراءة بإظهار ما هو تطوع ونافلة» واحترزوا في هذا أيضاً بألا يكون القصد من إظهاره أن يقتدى به<sup>(١)</sup> . وأرى السياق في غنى عن مثل هذا الاحتراز ، إذ ليس في إظهار فرائض العبادات ، ولا في موضع القدوة ، مَظِنَّة مראה تُوعَدُ بويل .

• • •

ونفرغ بعد هذا لتدبر البيان القرآني لآيات الماعون ، فنرى التذير بويل «للمصلين» الذين هم عن صلاتهم ساهون . قد أثبت أنهم فعلاً يؤدون الصلاة ، ولكنهم ساهون عن صلاتهم غافلون عن كونها قياماً بين يدي الخالق ، يكبح غرور الإنسان ويأخذه بالخشوع والتواضع أمام جلال خالقه وعظمته وقدرته ، ويرهف نفسه اللوامة ، فلا يطيق دُعُ يَتِمُّ محتاج إلى العطف والرحمة ، أو السكوت على مسكين يضام ويُمنع حَقُّه في طعامه .

وصلاة الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، لا يمكن أن تُقام عن قلب خاشع وضمير مؤمن ، وإنما هي مראה وتظاهرٌ بالعبادة والتدين والتقوى ، قصداً إلى جلب منفعة أو دفع أذى .

وحين لا تؤدي الصلاة غايتها من النهي عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تعود بذلك طقوساً شكلية وحركات آلية مجردة عن معناها وحكمتها . والإسلام يرفض هذه الآلية في شعائر الدين ، ويتجه بالعبادات إلى أن تكون تهديباً للنفس ورياضة للضمير وهداية إلى خير الفرد والجماعة .

والذي في آية البر :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكن البر من آمن بالله واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبينِ وآتى المَالَ على حُبِّه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرقابِ وأقام

(١) الزمخشري في الكشاف ٤ ، ومثله في تفسير الرازي : (الماعون) .

الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء  
والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»  
(البقرة ١٧٧)

وفى آية الحج :

«لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» ٣٧ .  
هو ما فى آية الماعون ، فى المصلين الذين يؤدون الصلاة أداء شكلياً وطقوساً  
وحركات آلية يراءون بها ، غافلين عن حكمة إقامتها ، ساهين عما تنهى عنه من الفحشاء  
والمنكر .

• • •

ويمثل ذلك الهدى القرآنى ، يروض الإسلام بشرينتنا على احتمال المسئولية العامة ،  
ويرتقى بالإنسان إلى حيث لا يكتفى بالواجب الفردى وأداء العبادات ، بل يعد دعاً  
اليتم وعدم الخس على طعام المسكين تكديباً بالدين . وليس وراء ذلك مطمح  
للإنسانية فى التزام تبعة وجودها واحتمال أمانة الحق العام فى التكافل والتراحم ،  
والدعوة إلى الخير والتواصى بالحق والرحمة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

« فويل للمصلين • الذين هم عن صلاتهم ساهون • الذين هم يراءون  
ويمنعون الماعون »  
صدق الله العظيم